

سرّ الاعجاز



www.balagh.com

اختلفت أنظار العلماء في وجه إعجاز القرآن، بين من أنهاه إلى عدة وجوه ومن اقتصر على وجه واحد، ولا يزال البحث مستمراً عن هذا السر الذي هو دليل الإسلام:

1 - ذهب أرباب الأدب والبيان إلى أنها الفصاحة البالغة والبلاغة الفائقية، إن في بديع نظمها أو في عجيب رصده، الذي لم يسبق له نظير ولن يخلفه بديل..

قد نضدت عباراته نضداً مُؤْتَلِفاً، ونظمت فرائده نظماً متلائماً، وضعت كل لفظة منه في موضعها اللائق بها، ورصفت كل كلمة منه إلى كلمات تناسبها وتوائمها، وضعاً دقيقاً ورصفاً تاماً، يجمع بين أناقة التعبير وسلامة البيان، وجراة اللطف وفخامة الكلام، حلواً رشيقاً وعدباً سائغاً، يستلذه الذوق ويستطيبه الطبع... مما يستشف عن إحاطة واسعة ومعرفة كاملة بأوضاع اللغة ومزايا الألفاظ والكلمات والتعابير... ويقصر دونه طوق البشر المحدود!

قالوا في دقة هذا الرصف والنضد: لو انتزعت منه لفظة ثم أدير بها لغة العرب كلها على أن يوجد لها نظير في موضعها الخام، لم توجد البة..

2 - توسيع المحدثون في البحث وراء نظامه الصوتي العجيب:

أنغام وألحان تبهر العقول وتذهل النفوس، نظمت كلماته على أنظمة صوتية دقيقة، ورصفت ألفاظه

وعباراته على ترصفات موسيقية رقيقة، متناسبات الأجراس، متناسقات التواقيع، في تقاسيم وتراتيب سهلة سلسة، عذبة سائفة، ذات رزّة وحذبة شعرية عجيبة، واستهوء سحريٌّ غريب!

3 - وأضاف المحققون جانب اشتتماله على معارف سامية وتعاليم راقية تنبئك عن لطيف سرٍّ الخلقة، وبديع فلسفة الوجود، في جلال وجمال وعظمته وكبرياته، بما يترفع كثيراً عما راجت في تعاليم مصطنعة ذلك العهد، سواء في أوساط أهل الكتاب أو الوثنيين.

4 - وهكذا تشرعاً به جاءت حكيمه ومتينة، متواقة مع الفطرة ومتواقة مع العقل السليم... في طهارة وقداسة وسعة وشمول، كانت جامعة كاملة كافلة لإسعاد الحياة في النشأتين.

5 - وكانت براهينه ساطعة ودلائله ناصعة، واضحة ولائحة، قامت على صدق الدعوة وإثبات الرسالة... في بيان رصين ومنطق رزين وفصل خطاب.

6 - واحتتماله على أنباء غيبية، إما سالفه كانت محرفة سقيمة، فجاءت محررة سليمة في القرآن الكريم، أو إخبار عما يأتى، تحقق صدقها بعد فترة قصيرة أو طويلة، كانت شاهدة صدق على صدق الرسالة.

7 - إلى جنب إشارات علمية، عابرة، إلى أسرار من هذا الكون الفسيح، والمعايير خاطفة إلى حقائق من خفايا الوجود، مما لا تكاد تبلغه معرفة الإنسان العائش يومذاك.

8 - وأخيراً استقامت في البيان، وسلمته من أي تناقض أو اختلاف، في طول نزوله، وكثرة تكراره لسرد حوادث الماضين، كل مشتمل على مزية ذات حكمة لا توجد في أختها. وكذا خلوه عن الأباطيل وعما لا طائل تحتها.

تلك روائع آراء نتجتها أنظار الأدباء، وبدائع أسرار وصلت إليها أفكار العلماء، كانت من وجوه إعجاز القرآن ومزاياه الوسيمة، سوف نسرد عليك تفاصيلها في مجالها الآتي إن شاء الله.

9 - لكن هناك وجه آخر يجعل من الإعجاز أمراً خارجياً عن جوهر القرآن بعيداً عن ذاته، وإنما هو لعجز أحداته الله في أنفس العرب والناس جميعاً، ومنعهم دون القيام بمعارضته قهراً عليهم. وهو القول بالصرفة، الذي عليه بعض المتكلمين الأوائل ومن لف لفهم من الكتاب الأدباء.